

## دانييل بن سيمون

### مستوطنو الخليل لجنود جيشهم: "لا مستقبل لكم في هذا البلد" \*

في سورة غضبهم وأوج شعورهم بالإذلال، تجول أولاد [المستوطنين في] مدينة الخليل بين الجنود، محاولين معرفة من هو يهودي ومن هو غير يهودي بينهم، أي من من "نسلهم" ومن من نسل عماليق. وفي حين كان الأولاد الإسرائيليون يمشون في معظمهم عطلتهم الصيفية في مخيمات نهائية أو بالقيام برحلات، مستمتعين بوقتهم في مياه البحر أو في أحواض السباحة، بدأ أولاد مخيم مدينة الخليل النهاري كأنهم يعيشون على كوكب آخر. أولاد في سن العاشرة وما دون، وجوههم متوهجة حقداً، على رؤوسهم قلانس ضخمة، وتتدلى فوق أذانهم خصلات سولف طويلة مجدولة، ساروا بين الجنود متفحصين بطاقات التعريف الخاصة بكلابهم.

وكل من تبين أنه غير يهودي من الجنود تلقى المعاملة المناسبة: فقد رشقه الصغار الأشقياء من دون رحمة بوابل من الشتائم والإهانات. إنهم مجرد أولاد ليس إلا، لكنهم خبراء بمبادئ العنصرية. وقد نعت الجنود بكل الصفات النابية لكنهم، ربما لأنهم تلقوا أوامر من السلطة العليا، لمزوا الصمت كما لو أنهم أصيبوا بإغماء، إذ لم ترتسم على وجوههم أية علامة انفعال.

يذكر أولاد مدينة الخليل المرء كثيراً بأولاد مخيمات "يسوع" الصيفية، أي أولئك الذين يعيشون في "حزام الإنجيل" (Bible Belt) في الولايات المتحدة الأميركية، والذين سممت عقولهم العقيدة الدينية فأصبحوا رأس حربة الأصولية المسيحية. وبعد لحظات من بدء عملية إجلاء السكان عن السوق يوم الثلاثاء، صاح أحد الأولاد في وجه واحد من حرس الحدود يحمل اسماً غير يهودي قائلاً: "إن جاء أحدهم ليقتلك، فاقتله أولاً!" (كان بين رجال الأمن الحاضرين في المكان مهاجرون روس وإثيوبيون ودرون). وقرب الولد وجهه من وجه الجندي حتى كادا يتلامسان ليقول: "مكتوب في التوراة أن علي أن أقتلك لأنك من نسل عماليق... أنت غوي [غير يهودي]، ولا يحق لك أن تطأ هذه الأرض المقدسة. أخرج من هنا، أنت ورفاقك!"

حاول جندي "يهودي" أن يهدئ الولد الثائر فجوبه بوابل من اللعنات: "أنت لست يهودياً، أنت نازي. سنقتلك أنت وكل النازيين الموجودين هنا." وحاصر أولاد آخرون، يقطرون حقداً، مجموعة الجنود، مستمتعين بمراقبتهم كما لو أنهم في حديقة حيوانات. أما أمهاتهم فبقين جانباً يراقبن أولادهن الرائعين وهن لا يكدن يخفين سرورهن. على مسافة بضعة أمتار، حاولت امرأة تدعى عنات كوهن أن تعرقل عملية إجلاء السكان عن أحد المنازل. كانت نحيلة وحافية القدمين ومرتدية وشاحاً، وراحت تلعن الجنود بلا رحمة. وبينما كانت لا تزال تصرخ سمعت أصوات رشقات نارية قريبة، كانت تعبيراً عن احتفال فلسطينيي المدينة بظهور نتائج امتحانات التوجيهية. غير أن اليهود كانوا مقتنعين بأن هذه الطلقات تعبير عن شماتة [الفلسطينيين بإجلاء المنازل من اليهود الذين احتلوها]. وأصابت كوهن نوبة هستيريا، فأخذت تصيح في وجه عشرات رجال الأمن قائلة: "إنهضوا أيها الكلاب! إنهضوا! إنهم يطلقون النار إكراماً لكم فقفوا إكراماً لهم. إن أعداءنا العرب يطلقون رشقات نارية إكراماً لكم بسبب ما تفعلونه باليهود."

ونظر أب وابنه، وهما يهوديان متشدان من نيويورك، إلى المحلات المدمرة وقد غمر الحزن قلوبهما. فخاطب واحدهما الآخر بالبيديشية. وطفق الابن، واسمه شموئل لنداو، يأخذ صوراً للجنود المنتشرين في كل زاوية ظليلة. وكانت الساعة العاشرة صباحاً عندما انتهت عملية إجلاء السكان. وعمل جنود قيادة الجبهة الداخلية على تفكيك كل منفذ ممكن وسده للحؤول دون دخول المستوطنين الذين تم إجلاؤهم إليه مجدداً.

ينوي شموئل إرسال الصور التي التقطها إلى أصدقائه المنتمين إلى الطائفة الحسيدية الأمشينوفية في الولايات المتحدة الأميركية، والتي لا يتجاوز عدد أتباعها في إسرائيل بضع مئات. قال: "إنهم ليسوا يهوداً، مشيراً إلى مئات الجنود. وأضاف: "نحن اليهود الحقيقيون". فأوماً الأب برأسه موافقاً: "تسألني عن الجنود، وهذا جوابي: إنهم ليسوا يهوداً. أنظر إليهم، إنهم روس وإثيوبيون ودرون، وحتى الذين يعتبرون أنفسهم يهوداً هم ليسوا كذلك، وإنما هم صهيونيون ويساريون."

وتابع شموئيل: "الصهيونية هي مشكلة إسرائيل الكبرى. فهي أبعدت اليهود عن التوراة وعن القيم اليهودية. لا مستقبل لكم في هذا البلد. ففي النهاية، سترحلون جميعاً عن هذا البلد وسنبقى نحن فقط." تعتبر صفة "إسرائيلي" كلمة قذرة في هذا الجيب الذي يتأكله الكره في مدينة الخليل. فلا أحد من مئات ساكني هذه المدينة يعرف عن نفسه بأنه إسرائيلي، كما لو أن إسرائيل مستعمرة لمعاقبة محكومين بارتكاب جرائم. وحتى بعد أن غمرتهم الدولة بالحماية والموارد والمساعدة والعطف أيضاً، يعتبر هؤلاء القوم إسرائيلي حكومة أجنبية. فالسيادة الإسرائيلية حلت محل سيادة الشريعة اليهودية (هالاخا) وجعلت من نفسها بالتالي عدوة بحق. باستثناء وجود الجنود، لا أثر هنا لـ "الإسرائيلية". كل شيء يهودي: أسماء الشوارع، وشعارات الكراهية المكتوبة بالدهان على محلات الفلسطينيين، واللحى الطويلة، والقلائس على الرؤوس. الأوساخ تنتشر في كل زاوية من المدينة، والعبرية تحكى أيضاً بشكل رديء. إضافة إلى ذلك، لا يجد المرء هنا أي كتب علمانية أو ثقافة إسرائيلية، فضلاً عن أن معظم الأولاد لم يقرأوا قط أرض إسرائيل عينها، وأن أغلبية الراشدين قلما قصدت هذه الأرض، وكان ذلك بشكل رئيسي لتلقي العلاج، أو للاحتفال بمناسبات عائلية، أو لتعزية أشخاص في حالة حداد.

أحد ساكني الحي اليهودي القدماء في مدينة الخليل، وقد رغب في كتم اسمه، قال لي: "ليس لدي ما أقوله لكم، أنتم لستم أممي ولا جزءاً منها." وأضاف: "أنتم أعدائي وأصلي كي يأتي اليوم الذي سنثار فيه لما فعلتموه بنا في مستوطنات غوش قطيف وما تفعلونه في الخليل. إنني أكرهكم أكثر من العرب وستدفعون ثمن فعلتكم إلى الأبد." إنه رجل في الثالثة والخمسين من عمره وأب لثمانية أولاد. وفي اليوم الذي جرى فيه الإجماع هذا الأسبوع، نهض باكراً ونزل مع أولاده إلى ساحة المعركة. وتابع: "لم نذهب [في مقاومتكم] إلى المدى الأبعد لأننا قررنا أن نشن حرباً سلبية، وسنترك الحرب الكبيرة إلى النهاية. لا مستقبل لكم في هذا البلد، فاخبر رفاقك إذاً بأن يستغلوا الوقت المتبقي لهم. وسننتصر ببطون نساءنا."

وُلد إخلاء مستوطنات غوش قطيف أزمة ثقة لم يشهدها المستوطنون منذ حرب الأيام الستة سنة 1967. فحتى في أسوأ كوابيسهم لم يتصوروا أن الدولة ستتجرأ على استئصال اليهود من أرض غزة "المقدسة". فهم قد اعتادوا لأعوام عديدة، أو بالأحرى سُمح لهم بأن يعتادوا أن يملوا على الدولة كيف تتصرف. وإذ برئيس الحكومة السابق أريئيل شارون يظهر في الساحة ويغير الطريقة المتبعة. وحتى في أوج الأزمة، صدق المستوطنون الحاخامين الذين أعلنوا أن "الأمر لن يحدث أبداً"، ظناً منهم أن معجزة ستحصل في اللحظة الأخيرة وتمنع تنفيذ الحكم [بإخلائهم]. ومنذ إخلاء مستوطنات غوش قطيف، عزل العديد من سكانها أنفسهم عن العالم الخارجي، ولا تزال صدمة اقتلاعهم جرحاً نازفاً.

منذ عام ونصف عام تقريباً، خلال المحاولة الأولى للصعود إلى مستوطنة حومش التي تم إخلاؤها في الضفة الغربية، بدا ضعف الحكومة تجاه عزم الحاخامين واضحاً. إن خيطاً متيناً كالفولاذ يربط بين عملية إخلاء مستوطنة أمونا وبين الصعود إلى مستوطنة حومش، ومحاولة العودة إلى مستوطنات غوش قطيف، وأحداث مدينة الخليل: عزم على محو عار إخلاء المستوطنات من وعي المستوطنين. إنهم لن يخلوا منازلهم أبداً بعد اليوم، ولن يساقوا أبداً بعد اليوم كالشاة إلى الذبح. وفي ضوء ذلك، ازداد الحقد تجاه الدولة ومؤسساتها وتعززت مكانة الحاخامين الأصوليين الذين ينتمي العديد منهم إلى مجلس مستوطنات يهودا والسامرة [الضفة الغربية].

بعد عامين على إخلاء مستوطنات غوش قطيف، تواجه الحكومة الإسرائيلية تهديداً داخلياً ينطوي على انعكاسات استراتيجية على صورتها المستقبلية. إنها لحظة مصيرية في التعايش الذي يشوبه التوتر بين الذين يؤيدون القيم العلمانية وبين أولئك الذين يتمسكون بالشريعة اليهودية. ومن غير الواضح إن كان مئات الآلاف من معتمري القلائس سيظلون يعتبرون أنفسهم جزءاً من الدولة في حال تم التوصل إلى اتفاقية سلام تتطلب انسحاباً كبيراً من أراضي الضفة الغربية.

في مثل هذه الحالة سيمثل الجيش، الذي يشكل انعكاساً للمجتمع، معضلة وجودية بالنسبة إلى الذين يفضلون سيادة الدولة، وإلى أولئك الذين يؤيدون في المقابل سيادة الشريعة اليهودية. ولأول مرة منذ ضم الأراضي إلى دولة إسرائيل خلال حرب الأيام الستة، يبدو أن إسرائيل لن تتمكن من تفادي المواجهة المتوقعة. وقد ظهرت العلامات الأولى هذا الأسبوع في أثناء الإخلاء الذي جرى في مدينة الخليل، حين فضل عشرات الجنود قرار الحاخامين المستند إلى الشريعة اليهودية على أوامر قادتهم [وامتنعوا من المشاركة في عملية الإخلاء]. ■

(\*) المصدر: *Haaretz*, 10/8/2007.

ترجمة: باتريك كامل.

(\*) عملية إجلاء مستوطنين يهود عن حانوتين في سوق الخليل العربية بتاريخ 2007/8/7 كانوا استولوا عليهما بالقوة بصورة غير شرعية. وقد ترافق ذلك بمشاعر عدائية من جانب المستوطنين تجاه الجنود، وأيضاً بظاهرة رفض عشرة جنود واثنين من قادة الوحدة تنفيذ أوامر الإخلاء. والمقال هنا يصف ردات فعل المستوطنين في وقت الإجلاء. (المحرر)

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)